Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرائع لوصف الحرب وطبيعة المعارك ، ولا عند هذا التشكيل البديع بالكلمات ، في هذه الملحمة الجياشة من ملاحم المتنبي في وصف الحروب ، فما أكثر ما تناولها الدارسون والنقاد والباحثون لكن لا بد أن أتأمل بعض الشيء طبيعة هذا السياق الفني لهذه القصيدة ، أو اللوحة كما أسميها . فما العلاقة مثلاً بين المشهد الأول من هذه اللوحة ، الذي يبدأ من البيت الأول حتى البيت التاسع ، وبين المشهد الثاني الذي يبدأ من البيت العاشر (لقيت بدرب القلة الفجر لقية) وينتهي عند البيت الرابع والخمسين .. ؟ ولماذا ربط بين هذين المشهدين ... مشهد الحديث الحزين عن النفس وتصوير فكرة الزمن ووقعها على نفسه ، ثم هذا المشهد العاتي المتحرك الجياش الذي يصف فيه معارك سيف الدولة : في تأديب القبائل المتمردة في ديار بكر . ووصف عبوره الفرات إلى دلوك ودرب القلة . وترويعه العدو في ملطية . ثم عودته مرة ثانية ليكسر جيش « الدمستق » عبر جيحان وليأسر ابنه « قسطنطين » ؟ . ما علاقة كل هذا المشهد الأول وهو في ظاهره لا يتجاوز الغناء الذاتي الحزين . لقد وفر النقاد القدامى على أنفسهم هذا التأمل لأنهم اعتبروا الأبيات التسعة الأولى مقدمة غزلية تجري على تقاليد الشعر العربي القديم ، ثم جاء البيت التاسع لينهي هذه المقدمة ويتخلص تَخَلّصاً حسناً لينتقل بعد ذلك إلى الغرض الأصلي وهو وصف المعارك ومدح سيف الدولة . ونحن كما قلت مراراً ، إن أبا الطيب لم يكن مجرد شاعر مداح كل مهمته مدح الملوك والأمراء طلباً لنوالها . وإنما كان رجلاً يشتغل بالحياة العامة ، من خلال شعره . وكان يعتبر نفسه شريكاً لسيف الدولة في معاركه . وكان يسعد بكل انتصار ، ويحس أنه أسهم فيه . ويحزن لكل اندحار ويشعر أنه يتحمل تبعته . ومن هنا كان وصفه للمعارك بكل هذا الصدق النفسي والفني . وبكل هذا القدر من الجيشان والاحتدام والتوهج الحار . من أجل هذا أعتقد أن تجربة حروب سيف الدولة كانت تعتبر بالنسبة لأبي الطيب ، تجربة ذاتية على نحو ما . ولهذا فالرباط قائم في هذه اللوحة بين المشهد الأول والمشهد الثاني ، بهذا الاعتبار ، فوحدة الأثر النفسي قائمة بين المشهدين .

ولكن ذلك لا يحل المشكلة كلها ، لأننا نتساءل من جديد لماذا ربط أبو الطيب بين تجربتين من أعتى التجارب الذاتية ، في قصيدة واحدة ؟ لماذا لم يفرد هذه المعارك بقصيدة مستقلة ، ويفرد تجربة الزمن وهذا الغناء الحزين بقصيدة مستقلة . وكل تجربة من هاتين التجربتين تستحق أكثر من قصيدة ، وقد أفرد